

الباب الرابع

الفتح العثماني

القدس في عهد الأتراك العثمانيين - القدس وإبراهيم باشا -
القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية) .

obeykandi.com

القدس في عهد الأتراك العثمانيين

(من ١٥١٧ م - إلى ١٨٣١ م)

احتل السلطان سليم الملقب بياوز القدس (١٥١٧ م^(١)) بعد أن تغلب على المماليك في معركة (مرج دابق) ، وقتل سلطانهم طومان باي ، واحتل حلب وحمص وحماء وسائر بلاد الشام . ومنها سار إلى مصر ، فاحتلها . وتخلى له آخر الخلفاء العباسيين ، محمد المتوكل على الله ، عن الخلافة . وسلمه مفاتيح الحرمين . فأصبح الأمر الناهي في تركيا ومصر والشام . وأقام على الشام نائباً للسلطنة هو : جان بردى الغزالي^(٢) . وكانت القدس من أعماله .

عند ما دخل السلطان سليم القدس زار قبور الأنبياء ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة . وأتاه وهو في القدس سفير من إسبانيا يحمل رجاء مليكها . فقبل رجاءه ، وأتاح للنصارى الحج إلى بيت المقدس على شريطة أن يؤدوا الرسم الذي كانوا يؤدونه في زمن المماليك ، وقد أولم له سكان المدينة وليمة أقاموها في الفناء الواسع حول الصخرة . وأتوا له وبلحنده بالطعام في أوان تسمى (الهنابيب) فتساءل عن السبب . فقيل له : إنا قوم فقراء . ثم بحثوا له عن تسلط العربان وسكان القرى المجاورة . فاعتزم عمارة السور . ولكنه رجع إلى عاصمة ملكه القسطنطينية ، وتوفاه الله ، قبل أن يتمكن من تعميره . ولما توفي (١٥٢٠ م)

(١) هذا ما اتفق عليه أكثر المؤرخين . وأما المستر ريشموند E. T. Richmond فقد قال في كتابه The Dome of the Rock ص ٣٧ إن القدس فتحت عام ١٥١٢ م .

(٢) (عثمانلى تاريخى) للمؤرخ التركى أحمد راسم ص ٢٠٠ .

تبعاً للعرش ولده السلطان سليمان الأول الملقب بالقانوني . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت كثيرة ، نذكر منها :

أنه هو الذي جدد عمارة السور . وقد دامت عمارته خمسة أعوام (١٥٣٦ - ١٥٤٠ م) . ورمم القلعة (١٥٣١ م) . وأنشأ البرج الكائن على يمين الداخل من باب الخليل (١٥٣٨ م) . وعمر بركة السلطان على طريق المحطة . والسبيل الواقع قبالة البركة المذكورة . والسبل الكائنة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكزية ، وفي طريق الواد ، وفي ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء ، وفي طريق باب الناظر ، وبالقرب من باب الأسباط (١٥٣٦ م) . وقد عمر قبة الصخرة (١٥٤٢ م) ، وأعاد تبليطها . وعمر جدران الحرم وأبوابه . وسد الباب الذهبي من أبواب الحرم ، وفتح الباب المعروف بباب (ستنا مريم) . وجدد القاشاني الكائن في قبة السلسلة (١٥٦١ م) . وعلى عهده أنشئت التكية المعروفة بتكية خاصكي سلطان في عقبة المفتي . أنشأتها زوجته الروسية روكسيلانة (١٥٥٢ م) . والمدرسة الرصاصية بحارة الواد (١٥٤٠ م) . أنشأها الأمير بايرام جاويش الذي كان مناظراً لعمارة السور .

وأنشئ مسجد الطور (١٥٣٧ م) في المكان الذي تقوم عليه كنيسة الصعود . وهو الذي عهد بحراسة الدرب السلطاني بين القدس ويافا إلى آل أبي غوش ، وأجازهم أن يحصلوا من السياح بعض العوائد (١٥٢٠ م) .

وعلى عهده سكت فلوس جديدة سميت باسمه . وفرضت على الحجاج المسيحيين رسوم يدفعونها لدى ولوجهم كنيسة القيامة .

ولقد تولى السلطنة بعده ابنه السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ م) . فالسلطان مراد الثالث بن سليم الثاني (١٥٧٤ م) . فالسلطان محمد الثالث بن مراد الثالث (١٥٩٤ م) . فالسلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (١٦٠٣ م) . وعلى عهده عرف الناس التبغ لأول مرة ، واستعملوه في هذه البلاد (١٦٠٣ م) . وحُرِّم

بيع الخمر في القدس وفي جميع أنحاء المملكة (١٦١٣ م) .

ثم جاء السلطان مصطفى الأول بن محمد الثالث (١٦١٧ م) . فالسلطان عثمان الثاني بن أحمد الأول (١٦١٧ م) . فالسلطان مصطفى الأول للمرة الثانية (١٦٢١ م) . ولم يرد ذكر كثير للقدس في أيام هؤلاء السلاطين .

وأما في زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٢) ، فقد كانت القدس تابعة لمصر . ولقد حدثت فيها حوادث تستحق الذكر : منها أنه حظر على الناس شرب القهوة ، وتدخين التبغ (١٦٣٣ م) . واختل الأمن ؛ فراح الأشقياء يقطعون الطرق ، ويخربون ينابيع المياه . وذلك قد حدا بالسلطان لإقامة قلعة سميت باسمه (قلعة مراد) عند برك سليمان على طريق الخليل . وأنشأ في داخلها مسجداً وخمسين منزلاً لسكنى الجند . وكان يقوم على حراسها دزدار ، وأربعون جندياً مسلحين بالمدافع والأسلحة الكاملة .

بعد السلطان مراد الرابع تولى السلطنة إبراهيم بن أحمد الأول (١٦٣٩ م) . ثم تولها ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ م) . وعلى عهده بنيت المئذنة الكائنة بداخل القلعة (١٦٥٥ م) . وأنشئ المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان في الحرم القدسي ١٦٥١ م .

إن أحسن وصف للقدس في ذلك العهد نجده في مخطوط للسائح التركي الشهير (أوليا جلبي) . فقد زارها حوالي سنة ١٦٧٠ للميلاد ، ووصفها وصفاً جيداً . فمدح خبزها وثمارها وخضرها . ويبدو أنها اشتهرت يومئذ بمسكها وعطرها وبخورها ومباخرها النحاسية . وكان فيها ألفان وخمسة وأربعون دكاناً ، وستة خانات عظيمة ، ومحتسب ، وأسواق ، وثلاثة وأربعون ألف كرم . ورأى في وسط هذه الكروم زهاء ألف وخمسة مائة منظر . وكان يسكنها ستة وأربعون ألف نسمة أكثرهم عرب مسلمون . وكان فيها كنيس للأرمن ، وثلاث كنائس للروم ، وكنيسان لليهود ، ومثتان وأربعون محراباً للصلاة ، وسبع دور للحديث ،

وعشر دور للقرآن ، وأربعون مدرسة للبنين . وستة حمامات ، وثمانية عشر سبيلا يشرب الماء منها العطشان ، وتكايا لسبعين طريقة منها الكيلانية والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية .

ويظهر مما كتبه هذا السائح وغيره من السياح الأجانب أن كل شيء في القدس كان يومئذ على غاية ما يرام ، خلا (الأمن) . فقد كان هذا مفقوداً ، ولا سيما خارج أسوار القدس . وكانت القدس تابعة لطرابلس الشام .

وفي عام ١٦٨٧ م تولى السلطنة السلطان سليمان الثاني بن إبراهيم . ثم تولاها أخوه السلطان أحمد الثاني (١٦٩٠ م) . فالسلطان مصطفى الثاني بن محمد الرابع (١٦٩٤ م) . فالسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ م) . وعلى عهده ثار على الدولة نقيب الأشراف في القدس السيد محمد (١٧٠٥ م) فسأقت عليه جيشاً من الشام وأخذت ثورته . وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا وعكا . ثم جاء السلطان محمود الأول بن مصطفى الثاني (١٧٣٠ م) . وعلى عهده تجدد بناء حائط الخندق (١٧٣١ م) ، وعمارة مسجد القلعة (١٧٣٨ م) . وكانت القدس يومئذ تابعة للشام . ثم جاء السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ م) . فالسلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث (١٧٥٧ م) . فأخوه السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٣ م) . فالسلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١٧٨٨ م) . وعلى عهد هذا السلطان غزا نابوليون هذه البلاد (١٧٩٩ م) (١) وذوقت

(١) كان نابوليون يعتقد أن من يحتل مصر لا يكون آمناً فيها إلا إذا احتل أرض الشام . إنه وإن كان قال في بيانه الذي أذاعه على السكان أنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا ليقتهر الجزائر ، إلا أنه في الحقيقة كان يرمى إلى التحالف مع الطوائف المنتشرة في سوريا ضد الترك والحيلولة دون رجوع مصر لأحضان تركيا .

بعد أن احتل نابوليون غزة ويافا والرملة كان الناس يفتنون أنه لا بد وأن يولى وجهه شطر بيت المقدس ليفتحها ؛ حتى إن الأتراك سجنوا في كنيسة القيامة جميع الروم الأرثوذكس . ولكنه لم يفعل . بل أجاب الذين سألوه عن أهدافه : « . . . أن القدس غير مذكورة في الخطة التي رسمتها . . . إلى

من جراء حكم أحمد باشا الجزائر (١٧٨٦ م) (١) ومحمد باشا أبو المرق ما ذاقت . وهذا مما حمل الأشراف وسادات البلاد على أن يبيعوا أولادهم في السوق بيع العبيد .

بعد السلطان سليم الثالث تولى الملك السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول (١٨٠٧ م) فأخوه السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ م) . وعلى عهده وقعت في القدس وقائع ، نذكر منها أنه هو الذي ألغى نظام (الانكشارية) وطارد رجالها مطاردة لا هوادة فيها . حتى إنه منع الناس من ذكرهم . (١٨١٩) (٢) ومنع المسيحيين الأرثوذكسيين (١٨٢٠ م) من تعبير معابدهم ؛ إذ أنه كان

= لا أريد التحرش بسكان الجبال والتوغل في مآزق يصعب الخروج منها ... والحقيقة أن اهتمام نابوليون كان منصباً على المواقع ذات الأهمية الحربية . وما كانت للقدس يومئذ تلك الأهمية .

ومن قائل إنه كتب إلى أهل القدس رسائل يطلب إليهم فيها أن يخضعوا لأوامره . فأجابوه أنهم تابعون لإيالة عكا . فالذي يحتل عكا ويصدر أوامره منها يخضعون لأوامره ؛ وهم لا يريدون أن ينخرطوا في حرب أو ضرب . لأنهم يعيشون في بلد طافح بالأماكن المقدسة ، فانصرف إلى عكا ، يريد أن يحتلها . وكان الجزائر قد تحصن فيها . إلا أنه لم ينجح ، ورجع إلى مصر مدحوراً (١٧٩٩ م) .

(١) ولد الجزائر سنة ١٧٢٠ في إحدى قرى البوسنة . وعرب وهو شاب يافع من بلاده إلى الأستانة . ومنها إلى مصر حيث بيع فيها بيع العبيد . واستخدمه (أحمد بك أبو الذهب) في قصره ، ففتك بأعدائه ولقب بالجزار . وعهدت إليه الحكومة العثمانية بعدئذ بولاية بيروت (١٧٧٦ م) فما كاد يتسلمها حتى أعلن الثورة ضد الدولة . ويظهر أن الدولة رأت من مصلحتها أن تستميله إلى جانبها ، فجملته وزيراً ووسعت سلطته من الشام إلى غزة وعريش مصر . الأمر الذي اتخذ نابوليون ذريعة لفتح هذه البلاد (١٧٩٩ م) .

ولما اندحر نابوليون ، ازداد الجزائر ختلا . فعاد يمثل مظالمه ، لا فرق في نظره بين مسلم ومسيحي ويهودي .

ونظمت البلاد تذوق الأمرين من جراء فعالة إلى أن مات في عكا (١٨٠٤ م) ودفن بها . (٢) ذكرنا في كتابنا المفصل عن (تاريخ القدس) الشيء الكثير عن (ثورة الانكشارية) تلك الثورة التي وقعت في ١٨١٩ م . وعما فعلته الساطات التركية من أجل إخماد تلك الثورة والقضاء على رجالها . ونود أن نلخص هنا ما قلناه هناك بوجه التفصيل ، فنقول :

« حاصر رجال الانكشارية متسلم القدس (مصطفى آغا الطزني) في مكتبه بدار الحكومة . فطلبوا منه بتحريرض من الأرمن أن يوقف الروم عند حدهم ، وأن يمنهم عن الاستمرار في عمارة الكنيسة . تلك الكنيسة التي كان الأرمن قد حرقوها (١٨٠٨ م) . وأصر الانكشاريون على =

يكرههم ، ولا سيما من كان منهم يوناني الأصل (١) . وسمح للاتين ببناء غرف جديدة في ديرهم ، وتعمير ما ينقصهم في كنيسة القيامة . وأمر المسلمين من سكان بيت المقدس أن يخلعوا عن رؤوسهم (القاووقة) التي كانوا يلبسونها حتى ذلك التاريخ . ووضعت القدس والشام معاً تحت تصرف عبد الله باشا والى عكا . ويظهر أن صلوات هذا الباشا مع الحكومة المركزية في القسطنطينية كانت سيئة لدرجة أنها حرصت عليه في بادئ الأمر ولاية الشام وطرابلس وحلب . ثم عادت ، فعفت عنه . ولكنها أخذت القدس منه ، فجعلتها تابعة للشام . وكان على الشام وال اسمه مصطفى باشا . وكان هذا ظالماً . ففرض على الناس ضرائب لا عهد لهم بمثلها من قبل . فقامت في القدس اضطرابات . وعقب

« أن يتولوا هم حماية القلعة بدلا من الجند الذين أرسلوا من الشام . وهددوه بالقتل إذا هولم يذعن لمطالبهم .

فاستمهلهم المسلم ريثما يستشير يوسف باشا في الشام . وقبل أن يأتي الجواب راحوا يعملون يد النهب والتخريب في الروم وديرهم . وفيما كانت الثورة التي أوقدوا نارها متأججة كان المدد قد أتى من الشام . وعدد من الخيالة المغاربة قد وصلوا بقيادة (أبو ذريعة) . فدخلوا المدينة ليلا من الباب المعروف بباب الأسباط . وما كاد فجر اليوم التالي ينبليج حتى كان معظم الثوار قد وقعوا في الشرك . فألقى القبض عليهم ، ونكل بهم تنكيلا . وقيل إن المسلم وحده سخرت بيده ٣٨ رجلا من رؤوس الفتنة في ليلة واحدة .

(١) ذلك لأنهم راحوا يعضدون (اليونان) الذين نادوا باستقلال بلادهم عن تركيا (١٨٢٠) . وقد ناشد السلطان محمود الأهالي أن يكونوا على حذر من الروم ، وأن يتسلحوا ، وأن يعرفوا كيف يصورون أماكنهم المقدسة . فتسلح المسلمون شيباً وشباناً . وهاجموا البطريركية وعلى رأسهم المتسلم سليمان أفندي وكان هذا من قبل يهودياً ، فاهتدى بدين الإسلام ؛ كما كان معهم موسى بك الغزالي رئيس البنادق والأسلحة ، وقائد حامية القدس . فسادت الفوضى في المدينة . وحل بالنصارى كرب شديد ؛ ولا سيما الروم ؛ فقد صودرت أسلحتهم ، وأمروا بلبس السواد ، واستخدموا بنقل المدافع من مكان إلى مكان . ورفعت الضرائب المطلوبة منهم من ستين ألف قرش إلى مئة ألف . وكاد الرعاع يفتكون - بتحريرض المتسلم - بجميع المسيحيين ؛ لولا أن درويش باشا والى الشام قد تلافى الأمر . وكذلك فعل أفندية القدس وأعيانهم المسلمون الذين راحوا يحثون الشعب الهائج على السلم والسكينة . وأذاعوا بياناً مشتركاً أمضوه كلهم طالبين عدم تصديق الشائعات التي يذيعها المفرضون ، مستنكرين الاعتداء على المسيحيين الذين جاء ذكرهم في القرآن بأن « منهم قسيسين ورهباناً » وأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من اليهود . وهكذا هدأت الثورة ، وعادت المياه إلى مجاريها .

الاضطرابات فتنه (١٨٢٤ م) . ورفض المقدسيون أن يدفعوا للجباة الضرائب التي طلبوها منهم ؛ لا ، بل وطردوهم من منازلهم . وكذلك فعل الفلاحون في قراهم . ولم يستطع المسلم ، ولا الوالي قمع الفتنه . ولم يكن في القدس يومئذ سوى ستين جندياً . فأرسل عليهم مصطفى باشا جيشاً قوامه خمسة آلاف رجل . وجاء هو معهم . فهبط نابلس أولاً . وقضى فيها عشرين يوماً ، تمكن خلالها من تحصيل جميع الأموال المتأخرة . ولما سمع أهالي جبل القدس بما جرى في نابلس هجروا قراهم ، واتخذوا المغاور والكهوف ، في الجبال والأودية مأوى لهم (١٨٢٥ م) .

ولما وصل الباشا إلى القدس ، لم يخرج أحد من الأهلين لاستقباله . ولم يتقدم أحد منهم لدفع ما عليه من المال . فغضب ، وأصدر أمره للجند بمصادرة أموالهم وتخريب أملاكهم . ولكن المنازل كانت كلها خاوية . وليس فيها ما يمكن أن يصادر .

وما كاد الباشا يرحل عن المدينة حتى رجع السكان إلى منازلهم ، وأعلنوا الثورة من جديد ، وهاجموا القلعة ، فاستولوا عليها ، وأسروا كل من كان فيها ، وجردوهم من سلاحهم ، وراحت أعلام الثائرين تخفق فوق البرج والأسوار . ونجا المستلم بنفسه ، فرحل من المدينة بعد أن سمح له الثوار بذلك . وكان بإمكانهم أن يقتلوه . وكذلك فعلوا بموسى بك قائد الجيش ، الذي أراد ، بعد أن انتهى من حملته التأديبية في بيت لحم ؛ أن يدخل القدس ؛ ففنعها سكانها ، وأسمعوه من قوارص الكلم ما جعله ييأس وقد قفل راجعاً إلى الشام .

ليس هذا فحسب . بل جرد المقدسيون من السلاح جميع الأتراك الذين كانوا في المدينة . وبكلمة أخرى ضيقوا الحناق على كل شخص لم يكن عربياً من سكان المدينة . وعهدوا إلى اثنين من زعمائهم ليديروا المدينة ويحولوا دون وقوعها في شرك الفوضى وهما : يوسف عرب الجبجباب وأحمد آغا الدزدار .

فعمل هذان الزعميان على تمكين أوامر المودة بين المسلمين والمسيحيين ، وألغيا الأعتبار والضرائب الأخرى التي فرضت عليهم ، وكانوا يعتبرونها حملا ثقيلا . وما كاد يخبر هذه الثورة يصل إلى مسامع السلطان محمود ، حتى أصدر أمره بوجوب إخضاع المقدسيين الأثرين بأى ثمن كان . فأمر عبد الله باشا (١٨٢٦ م) أن يذهب من فورهِ إلى القدس ، وأن يصطحب معه كل ما لديه من جنود وعتاد ، وأن يسترد ما فقدته الحكومة في هذه المدينة من هبة ونفوذ . وقابل سكان بيت المقدس الجيش الزاحف بقلوب ملؤها الإيمان . فرفضوا الإنذار الذى وجهه إليهم رسول عبد الله باشا المعروف بـ (الكهيا) قائلين : إنهم أقسموا ألا يعدلوا عن ثورتهم ، وألا يستسلموا للسلطان ما دام في مدينتهم أجنبي واحد . لا فرق في نظرهم بين شرقى أو غربى ... وبين تركى أو ألبانى ... بين مسلم أو غير مسلم وإنهم لعلى استعداد للموت فى سبيل وطنهم . وكانوا قبل وصول الجند ، قد سدوا أبواب المدينة بالحجارة . ولما أمدت الجند عليهم النار ، قابلوها بنار مثلها . لا ، بل أطلقوا من أعلى موضع فى القلعة ، نيران المدافع التى كانت فى حوزتهم . وظلت الحرب سجالا بينهم وبين الجند سبعة أيام وسبع ليال . وفى اليوم الثامن كان الجند الذين أرسلهم عبد الله باشا مدداً لحامية القدس قد وصلوا . وكانوا مزودين بمدافع أخرى منها مدفع كبير وثقيل . فراحت القنابل تتساقط فى وسط الأحياء والمنازل الآهلة بالسكان . وكانت ذخائر الأثرين ومؤون السكان بوجه عام قد نفذت . والجوع كاد يقضى عليهم . والخوف كان قد استولى على النساء والأطفال . فقرروا الاستسلام مشرطين إلغاء الضرائب الجديدة وإعلان العفو العام ، ومنع الجند من التدخل فى شؤون المدينة . وكان لهم ما أرادوا .

ولما تسلّم عبد الله باشا مفاتيح القلعة أقام فيها ثلاثمئة جندى . وراح هؤلاء يسيطرون على المدينة كما كانوا من قبل (١٨٢٧ م) . كما راح عبد الله باشا

يوقع أوامره بوصفه والى صيدا ومصر والعريش وغزة والقدس ونابلس وجنين .
 وما كادت النورة تهدأ في القدس على يد عبد الله باشا (١٨٢٧ م) حتى
 أعلن محمد علي باشا والى مصر الحرب على السلطان . وأرسل لمقاتلته في بر الشام
 جيشاً بقيادة ولده إبراهيم باشا . فاحتل هذا القدس وسائر أعمال فلسطين
 (١٨٣١ م) كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ووصل إلى كوتاهية ،
 وكاد يحتل الآستانة ؛ لولا تدخل الدول الأوروبية . ولما اصطالح الفريقان
 جعلت البلاد الواقعة بين أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . ولهذا دخلت القدس في
 حوزة البيت العلوى .

القدس وإبراهيم باشا

(١٨٣١ - ١٨٤١ م)

قلنا في آخر الفصل الذى سبق إن محمد علي باشا والى مصر أعلن العصيان
 على تركيا في عهد السلطان محمود الثانى ، وإنه أرسل لمقاتلته في بر الشام جيشاً
 بقيادة ولده إبراهيم باشا ، فاحتل هذا القدس (١٨٣١ م) وسائر أعمال فلسطين .
 كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ، ووصل إلى كوتاهية ، وكاد يحتل
 القسطنطينية عاصمة بنى عثمان ، لولا تدخل الدول الأوروبية^(١) . وإن الفريقين
 بعدئذ اصطالحا (٢٥ نيسان ١٨٣١ م) واتفقا على أن تكون البلاد الواقعة بين
 أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . وهكذا دخلت القدس في حوزة البيت العلوى .

(١) (البطل الفاتح إبراهيم) لداود بركات ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

لم يمض على وجود إبراهيم باشا في فلسطين سوى بضعة أشهر ، حتى قامت ثورة فيها ، وكانت القدس من أهم مراكز الثورة . ولقد ذهب الباحثون في تفسيرها مذاهب شتى . منها أن الأهلين كانوا ، منذ البداية ، ينظرون إلى الجيش المصرى نظرة الغاصب المحتل . ومنها أن هذا الكره ما نشأ إلا عند ما أصدر محمد على باشا أوامره لابنه إبراهيم باشا كى يجمع السلاح من الأهلين ويفرض بعض العوائد والرسوم الجديدة ، ويدعو إلى التجنيد الإجبارى في البلاد . ومن رأى القائلين بهذا القول أن إبراهيم باشا كان مخالفاً لرأى أبيه في هذا الموضوع ، وأنه حذره من عواقبه ، إلا أنه اضطر في النهاية إلى الإذعان ، ففعل ما فعل ، ولجأ إلى الشدة في فعاله ، مما قد أدى إلى الثورة .

كان أول عمل قام به إبراهيم باشا أن أصدر أمره إلى سكان القدس في (٢٥ نيسان ١٨٣٤ م) طالباً منهم أن يتجنّد واحد من كل خمسة من شبانهم . وفي قول آخر واحد من كل عشرة رجال . وكذلك فعل مع باقى البلدان . فكان على مدينة القدس أن تقدم للجيش مئتي رجل وعلى سكان القضاء أن يقدموا ثلاثة آلاف رجل . وكذلك قل عن سكان الأقضية الأخرى ك نابلس والخليل .

وأمر إبراهيم باشا بجمع السلاح من أى نوع كان ومن جميع الطبقات . وعمل على نزع النفوذ من جميع الزعماء وأصحاب الإقطاعات . وراح ينقى من البلاد كل من حدثته نفسه بإهمال الأوامر وعدم الطاعة . فكانت نتيجة هذه التدابير أن ارتاح لها المسيحيون واليهود ، وغضب المسلمون . واستغل الأتراك الفرصة ، فراحوا يحرضون المسلمين على الثورة ، فثاروا .

وما هى إلاّ عشية أو ضحاها حتى كانت نار الثورة قد اشتعلت في نابلس والخليل وصفد وغزة ويافا والصلت وفي كل مكان . وأما في القدس نفسها فقد انعدم الأمن ، وسادت الفوضى ، واختفى النصارى في أديرتهم واليهود في

كنائسهم . واغتمم الزعماء فرصة سفر إبراهيم باشا إلى يافا فعقدوا في ٢٨ نيسان ١٨٣٤ م اجتماعاً حضره مشايخ القرى المجاورة وقرروا إعلان الثورة .

في ٨ آيار حاصروا القدس . وفي اليوم التالي ٩ آيار ، أتتهم نجدة من نابلس والخليل فأصبح عددهم كبيراً . وقيل إن عدد النافرين بلغ يومئذ عشرة آلاف . كلهم مسلحون . وراح هؤلاء يقاتلون الجند المرابطين في القلعة ، وعددهم ألف ، كان إبراهيم باشا قد تركهم هناك بقصد الحراسة . وظلوا كذلك بضعة أيام . والتقى الفريقان ، الجند والثوار ، في شوارع المدينة ، فاقتتلوا قتالا عنيفاً . وكادوا ينتصرون على الجند . لولا أن سرت بينهم في تلك اللحظة شائعة تقول إن إبراهيم باشا في طريقه إلى القدس مصطحباً معه جيشاً لجباً . فانكسرت معنوياتهم . وراحوا يهربون ، تاركين وراءهم ستة وستين قتيلاً ، وراح الجند بعدئذ يهدمون الحوانيت والدكاكين ، وينهبون كل ما وقعت عليه أيديهم من أمتعة السكان وأموالهم . وألقى الجند القبض في اليوم التالي ، ١٠ آيار ، على أعيان المدينة ، وسجنوهم في القلعة . فاشتعلت النار من جديد . وركضت نابلس لنجدة أختها القدس ، فأمدتها بألبي مقاتل . فخشى البكباشي الأمر ، وانزوى هو وجنده في القلعة . بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور . ولكن المقدسيين الذين كانوا في داخل المدينة فتحوا الأبواب للثوار . ودخل هؤلاء المدينة . وساروا نحو القلعة . وكان يقودهم إبراهيم أبو غوش ، فوقع صدام عنيف بين الأهلين والجند . وصب هؤلاء نيران مدافعهم من القلعة على الأهلين . ودام القتال ثلاثة أيام . فسادت الفوضى في المدينة ، وساد معها الخوف والمرض والجوع .

وكانت أخبار هذا القتال قد وصلت إلى إبراهيم باشا وهو في يافا . فطلب في الحال من أبيه النجدة . فأنته هذه مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل . سار بهم فوراً إلى القدس يبغى الانتقام (٢٤ آيار ١٨٣٤ م) .

واتصل الخبر بالثوار ، فلم يجزعوا . ولا وهنت عزائمهم بل راحوا يستعدون

لملاقاة إبراهيم باشا وجنده ، عند الأبواب ، وفوق الأسوار . وكمن له الفلاجون
الناثرون في الكهوف والجبال المطلّة على الأودية ولا سيما عند باب الواد ، فعوقوا
تقدمه . وقتلوا ألفاً وخمسمئة من جنده .

ولكن ، تمكن إبراهيم باشا أخيراً ، ورغم جميع الحوائل ، من الوصول
إلى القدس . فحط رحله على جبل صهيون . وراح يرسم الخطط للقضاء على
الثورة . فخفف لاستقباله اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الروم الأرثوذكسيين .
ولم يقابله أحد من المسلمين . إذ كان هؤلاء قد فروا من باب الأسباط مصطحبين
معهم عائلاتهم وأمتعتهم خشية الانتقام . وعبثاً حاول إبراهيم باشا أن يقنعهم
بالعودة إلى منازلهم ، قائلاً إنه معترم العفو عنهم . فلم يلبوا نداءه .

ليس هذا فحسب . بل راحوا يوزعون النشرات داعين إلى الثورة ، ناقدين
بصراحة وجراحة أعمال الباشا . وتنادوا بعد ذلك للاجتماع في مخماس ، فبحثوا الطرق
الواجب اتباعها لمواصلة القتال .

ولما علم الباشا بأمرهم . ساق عليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل . وكان
هو في الطليعة فالتقى الجمعان على مقربة من مخماس . واقتتلا . فكان النصر
حليف الجيش . وانهمز الثوار تاركين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وخمسمئة أسير .
وساق الأسرى أمامه مكبلين بالحديد . ولما عاد إلى القدس ودخلها استقبله
النصارى واليهود استقبال الفاتحين .

ولم يفت انتصاره هذا في عضد الثوار . بل راحوا يجمعون ما تشتت من
شملهم . ويتنادون للقتال . وجرت اصطدامات عديدة بينهم وبين الجند : مرة
في بيت جالا (٣١ آيار) وأخرى على مقربة من مار إلياس (٤ حزيران) .
وفي الأودية والتلال الكائنة إلى الجنوب من بيت لحم ، وفي أرتاس . وفي كل
مكان . وذلك كله قد فتّ في عضد الباشا ، فأصبح لا يدري ماذا يفعل . وقد
ازداد حيرة عند ما أتته أنباء المدن الأخرى . فعلم منها أن نار الثورة ازدادت

اشتعالاً في نابلس وصفد وعكا وطبريا وفي يافا واللد وفي الخليل والكرك . وأيقن أن القوة التي كانت تحت تصرفه يومئذ (١١ حزيران ١٨٣٤ م) وهي لا تزيد على ستة آلاف جندي لم تعد كافية لإطفاء تلك النار . ولهذا أرسل إلى أبيه تقريراً عن الحالة ، وراح ينتظر تعليماته ، منزوياً في قلعة القدس .

أرسل محمد علي باشا إلى ابنه نجدة مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة وكتيبتين من الفرسان ، وألف من البدو . وأبحر هو من الإسكندرية إلى يافا ، حيث اجتمع بابنه إبراهيم باشا . وبعد أن تشاور الاثنان فيما يجب عمله ليقضيا على الثورة ، عاد هو إلى مصر ، وبقى ابنه ليتم مهمته . ولما عاد إلى القدس (٢١ حزيران) كان في صحبته ثلاثون ألف جندي . وكان معه عشرة مدافع كبيرة ، وخمس من قاذفات القنابل . فخبث في القدس نار الثورة من تلقاء نفسها ، دون أي قتال .

إنها (أي نار الثورة) وإن كانت قد خبت في القدس إلى حين ، إلا أنها عادت فاشتعلت فيها وفي كل مكان ، ورغم أنه اعتقل اثنين من زعماء الثوار في القدس وقطع رأس أحدهما في باب العمود والثاني في سوق الحبوب ، إلا أن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكراهة من أفئدة الأهلين .

ولقد زاد الطين بلة ما أصاب البلخند والأهلين من ضنك بسبب الهیضة (الكوليرا) التي انتشرت في القدس وفي سائر أنحاء فلسطين (١٨٣٨ - ١٨٣٩ م) والتي مات من جرائها خلق كثير ، وما أصاب إبراهيم باشا وجيشه في دمشق وفي سائر أعمال الشام ؛ مما لا يدخل في نطاق بحثنا ، مما حدا به للانسحاب من هذه البلاد .

وقد انسحب منها (١٨٤١ م) بعد أن أقام فيها عشرة أعوام . عاد إلى مصر تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين رافقوه في حملته . وقد استوطن هؤلاء بعض المدن والقرى الفلسطينية فصاروا منها .

الآن وقد انتهينا من ذكر الحروب والثورات التي قامت في هذه البلاد على عهد إبراهيم باشا ، نود أن نأتي ، بوجه الإيجاز ، على ذكر المنشآت التي أنشئت في القدس وفيما حولها من الضياع ، خلال ذلك العهد ، فنقول :
 على عهده أنشئ (١٨٣٤ م) جانب من القشلاق الكائن عند باب الخليل . وجددت عمارة السراى القديمة الكائنة على طريق الحسينية . وأنشئت (طاحون الهواء) الكائنة غربى المدينة ، وهى أول طاحون يطحن فيها المقدسيون قمحهم (١٨٣٩ م) . وبنيت (الزاوية الإبراهيمية) الكائنة إلى الشمال من ضريح النبي داود على جبل صهيون . وعمرت قلعة فى وادى الجوز . وأخرى بين هذا الوادى وجبل الطور . وأنشئت سلسلة من القلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس .

وتطورت البلاد على عهده تطوراً جديراً بالذكر إذ أنه كافح الرشوة ، واهتم بطرق المواصلات ؛ فأنشأ مسافات غير قليلة من الطرق ، وأتاح للتجار الأجانب البيع والشراء فى داخل البلاد ، وألغى الضريبة التى كان حراس الكنيسة يجبرونها منذ عهد صلاح الدين . كما أمر بإلغاء الخمس من المحاصيل الزراعية . ووزع البذار على الفلاحين . وشجع الناس على غرس الأشجار المثمرة . وأدخل إلى البلاد أنواعاً جديدة من الزراعة . كما أتى بعدد غير قليل من عرب البادية وأسكنهم فى القدس والسهول الحصبة .

ولقد ساوى بين المسلمين واليهود والنصارى . فأعفى النصارى واليهود من عادة النزول عن دوابهم إذا ما صادفوا مسلماً فى طريقهم . والفرق الوحيد الذى رضى به أنه كلف النصارى أن يدفعوا الجزية لقاء تجنيد المسلمين .

وكذلك قل عن اليهود . فإنه وإن كان قد ساوى بينهم وبين العرب من سكان البلاد ، إلا أنه قاوم الخطط التى وضعوها للاستعمار . يدلك على ذلك ما جاء فى مذكرات السير موسى حاييم مونتفيورى أحد كبار اليهود الإنجليز

(١٨٣٦ م) الذي قال إنه عبثاً حاول أن يقنع إبراهيم باشا وأباه محمد علي أن يوجراه أرضاً مساحتها خمسون فداناً ومثني قرية من قرى فلسطين لحمسين عاماً . ولقد أراد اليهود^(١) يومئذ (١٨٣٧ م) أن يسمح لهم بشراء الأملاك والأراضي الزراعية وتعاطى الحرث والزرع وتعاطى البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وإنشاء المصابن والمعاصر فاعترض أعضاء مجلس القدس الشريف على هذا الطلب الذي تقدم به وكيل طائفة السكناج بالقدس ، معتبرين ذلك سابقة ليس لها مثيل . هذا فضلاً عن مخالفته لحكم الشريعة . ولما رفع الأمر إلى محمد علي باشا أصدر هذا موافقته على ما جاء في قرار المجلس . أصدرها بعد أن استشار ولده إبراهيم باشا . ولم يسمح لليهود يومئذ إلا بتعاطى التجارة ، على أن لا تتعدى حدود البيع والشراء .

القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية)

(١٨٤١ م - ١٩١٧ م)

إن السنين العشر (١٨٣١ - ١٨٤١ م) التي قضاها إبراهيم باشا في هذه البلاد كانت طافحة بالحروب والثورات . ولهذا تنفس المقدسيون الصعداء عند ما جلا المصريون عن البلاد ، ورأوا أن مدينتهم عادت إلى أحضان بني عثمان . ولم يكن الشعور القومي قد نضج فيهم ، والتزوع إلى الاستقلال قد نما . وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا . وكانت هذه ترجع في أوامرها إلى مقر الأيالة العام في بيروت ، وكان يقوم على رأس الحكم في القسطنطينية

(١) (مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا) جمعها الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ الشرق في جامعة بيروت الأميركية .

عاصمة المملكة العثمانية السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود الثاني الذي تولى الحكم في ١٨٣٩ .

فوضع هذا أصول التجنيد الإجبارى ونظم المحاكم ومنح الأهلىن حرية التصرف ، وأمر بالتساوى بين رعايا الدولة ورعايا الدول الأجنبية ، وطارد الرشوة وكان عدد سكان القدس فى ذلك الحين عشرين ألفاً منهم ألف من المسيحيين . وانتظم المسيحيون فى الجندية ، مثلهم فى ذلك مثل المسلمين . ولقد أنفق السلطان على عمارة الحرم القدسى عشرين ألف ليرة تركية (١٨٦٠ م) وقامت على عهده (١٨٥٣ م) حرب القرم بين روسيا وتركيا . قامت من أجل الأماكن المقدسة . وكان النصر فيها حليف تركيا (١٨٥٦ م) . فابتهجت القدس بذلك النصر^(١) . وراحت الدول تتسابق فى بسط نفوذها على البلاد ، ولا سيما إنكلترا وفرنسا اللتان وقفتا إلى جانب تركيا فى حربها مع الروس . وثار سكان بيت المقدس على متصرفهم كامل باشا لأنه رضى بأن ترفع تلك الدول أعلامها على دور القناصل . وقيل إنهم مزقوا العلم الفرنسى (١٨٤٣ م) وكانت الحكومة العثمانية على درجة قصوى من الضعف حتى إنها لم تستطع الضرب على يد التجار الاستغلاليين . فارتفعت الأسعار إلى درجة لا تطاق (١٨٥٣ م) .

وكان أهل القدس إلى ذلك الحين يعيشون ضمن الأسوار . ورحنا بعد ذلك التاريخ نسمع أنهم راحوا يبنون العمارات خارج السور (١٨٥٨ م) .

وتولى السلطنة ، بعد عبد المجيد ، أخوه السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ م) . وكانت القدس فى أوائل عهده (١٨٦٠ م) متصرفية تابعة لولاية سورية ، مرجعها الشام . ثم جعلت متصرفية مستقلة (١٨٧١ م) تفاوض الباب العالى رأساً . وعلى عهد عبد العزيز أنشئت الطريق التى تربط يافا بالقدس (١٨٦٧ م) والطريق التى تربط القدس بنابلس (١٨٧٠ م) . ورصفت شوارع القدس

القديمة وأسواقها بالبلاط (١٨٦٣ م) ومنع إنشاء المساطب أمام الدكاكين .
وعلى عهده أيضاً (١٨٦١ م) عرف الأتراك وعرف معهم سكان بيت المقدس
الطربوش (١) ولبسوه . وكان عدد هؤلاء السكان يومئذ ثمانية وستين ألفاً . وأنفق
على عمارة الحرم وزخرفته ثلاثين ألف ليرة تركية . وبنى المسجد العمري على
مقربة من كنيسة القيامة .

ولما خلع عبد العزيز أقيم مكانه السلطان مراد الخامس بن عبد الحميد
(١٨٧٦ م) . ولكن هذا لم يمكث على العرش أكثر من بضعة أيام بسبب
ضعف عقله . .

ولما خلع السلطان مراد اعتلى سدة الملك أخوه السلطان عبد الحميد الثاني
(١٨٧٦ م) . وعلى عهده حدثت في البلاد حوادث جسام . نذكر منها ما يلي :
منح السلطان شعبه ، في بداية الأمر ، دستوراً . وأمر (١٨٧٧ م) .
بانتخاب برلمان أسماه (مجلس المبعوثين) . ومثل القدس في هذا المجلس رجل
من رجالاتها الأبرار هو المرحوم يوسف ضيا باشا الخالدي . وأكد في دستوره
أنه لا يفرق بين دين ودين . وإن كان قد أعلن أن دين الدولة هو الإسلام ،
ولسانها (التركي) ، والخلافة في بني عثمان . وكل إنسان حر في تصرفاته . ولكنه
عاد فاسترد هذه المنحة . فأغلق البرلمان ، وألغى الدستور (١٨٧٨ م) . وراح
يدير البلاد وفق مشيئته الخاصة . ونفى الأجرار الذين طالبوا بالدستور والحرية .
وكانت الحالة في فلسطين بوجه عام وفي القدس بوجه خاص ، تسير من سيء
إلى أسوأ في جميع الميادين الزراعية والاقتصادية والإدارية .

وعلى عهده قامت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ م) . وصدر قانون
(١٨٨٢ م) . يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضي فيها . ثم عدل

(١) أصله (سريوش) وهي كلمة فارسية معناها (لباس الرأس) وقد انتقل الطربوش إلى
تركيا من بلاد اليونان . وهذه أخذته من مدينة فاس من أعمال مراكش .

هذا القانون ، فسمح لليهود أن يدخلوا فلسطين بقصد العبادة شريطة ألا يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر وصدر قانون يمنع تجارة الرقيق (١٨٨٩ م) .
 وأنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس (١٨٩٢ م) . وأنشئ المستشفى البلدى الكائن غربى المدينة عند الشيخ بدر (١٨٩١ م) . وأنشئ برج عال على السور فوق باب الخليل (١٩٠٩ م) . وسبيل على مقربة من الباب المذكور (١٩٠٧ م) . وجددت عمارة السبيل المعروف بسبيل قايتباى (١٨٨٢ م) الكائن فى ساحة الحرم على مقربة من باب القطنين . ومنع إدخال التلفون (١٩٠٥) واستعمل اللاسلكى .

وبنيت (المدرسة الرشيدية) الكائنة تجاه السور عند باب الساهرة (١٩٠٦م).
 وأنفق على عمارة الحرم القدسى ثلاثون ألف ليرة عثمانية . ورصفت شوارع القدس رصفاً جديداً (١٨٨٥ م) هو الذى نراه فى معظم شوارع المدينة فى يومنا هذا .

وزار القدس على عهده إمبراطور الألمان غليوم (١٨٩٨ م) ففتحوا له ثغرة فى السور بجانب باب الخليل . وازداد تنافس الدول الأجنبية بالقدس ففتحت فيها قنصليات كثيرة أجنبية . ومع ذلك وبالرغم من وجود عدد قليل من الموظفين الأتراك ؛ فقد كانت الكلمة العليا فى القدس للعرب سكان البلاد الأصليين ، ولا سيما المسلمين منهم . وما كان بإمكان الأجانب أن يملكوا شيئاً إلا بإذن من المتصرف التركى وكان على هذا أن يرجع إلى (مجلس الإدارة) المؤلف من عدد من الموظفين وآخرين من مشايخ البلاد .

ومع هذا كله عرف عهد السلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد . وما كان بإمكان أحد أن يبحث شؤون السياسة أو يطرى كلمة (الحرية) . وظل الأمر كذلك إلى أن تألفت فى البلاد جمعية أسموها (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقامت بانقلاب (١٩٠٨ م) أعلن على أثره الدستور ، واجتمع البرلمان العثمانى . وكان

سنجق القدس ممثلاً فيه بثلاثة أعضاء هم : سعيد بك الحسيني وروحي بك الخالدي من القدس وحافظ بك السعيد من يافا . وحاول السلطان أن يراوغ . فأسقطوه ، وأقاموا مقامه أخاه السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٨ م) . ومثل قطاع القدس في البرلمان الذي اجتمع على عهده (١٩١٤ م) كل من روحي بك الخالدي وعثمان أفندي النشاشيبي وأحمد عارف أفندي الحسيني . ثم أعيد الانتخاب ففاز بالأكثرية سعيد أفندي الحسيني وراغب أفندي النشاشيبي وفيضى أفندي العلمي .

وعلى عهد هذا السلطان أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧ م) وخاض الأتراك غمارها إلى جانب حلفائهم الألمان . وراح الجيش التركي يحارب الإنجليز وحلفاءهم الروس والفرنسيين في خمس جبهات هي : القفقاس ، والدرديبل ، والعراق ، ورومانيا ، وفلسطين . ولكنهم خسروها . فخسروا معظم ما كان في أيديهم . ومنها القدس (١٩١٧ م) . فاحتلها الإنجليز (٩ كانون أول ١٩١٧ م) .

قبل أن تنتقل إلى الفصول التالية من هذا الكتاب نرى لزاماً علينا أن نصف القدس في العهد التركي من النواحي الإدارية والعمرانية والتجارية ، والاقتصادية والاجتماعية ، فنقول :

كانت القدس في العهد التركي مركزاً لقطع واسع يسمى (سنجق القدس) وهو مؤلف من خمسة أفضية ، وهي : (١) قضاء القدس (٢) قضاء يافا (٣) قضاء الخليل (٤) قضاء غزة (٥) قضاء بئر السبع . وهناك أربع عشرة ناحية (١) .

(١) خمس منها (أي من النواحي) تابعة للقدس ، وهي : بيت لحم . رام الله . صفا . عبوين . أريحا . وناحيتان تابعتان ليافا . وثلاث نواحي تابعت لغزة . وهي : خان يونس . المجدل . الفالوجة . وناحيتان للخليل . هما : بيت غطاب . بيت جبرين . وناحيتان لبئر السبع . هما : المليحة . عوجا . الحفير .

وثلاثمئة وتسع وسبعون قرية^(١). وخمس قبائل كبرى^(٢). ويقوم على رأس كل قضاء (قائمقام) وعلى رأس القطاع كله متصرف . وكان هذا يخابر وزير الداخلية في الآستانة رأساً، هذا في الشؤون السياسية ، وأما من حيث الشؤون المالية فقد كانت هذه تدار من قبل وزارة المالية. وكان قاضي القدس ، على عهد الأتراك العثمانيين ، الكل في الكل^(٣) من حيث السيطرة والحكم في جميع الشؤون الإدارية والمذهبية والحقوقية والجزائية^(٤) . وكان معظم الموظفين من أبناء البلاد ، خلا الحاكم الأكبر ورؤساء بعض المصالح العمومية ؛ فقد كانوا من الأتراك . والنفوذ كله كان بيد الزعماء والأفندية ، وذوى الإقطاع من مشايخ البلاد . وكان في القدس مجلس شورى (١٨٤٠ م) مؤلف من عدد من وجوه

(١) مئة وست وعشرون منها (أى من القرى) تابعة للقدس . ومثل هذا العدد من القرى ليافا . وخمس وسبعون قرية لغزة . واثنان وخمسون للخليل .

(٢) هى (أى القبائل) : العزازمة . الترابين . التياها . الحناجرة . الجبارات .

(٣) ارجع إلى سجلات المحكمة الشرفية في القدس . ولا سيما ذوات الأرقام ١٢ ، ٤٣ ،

٤٩ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٤) فلم تكن صلاحيته (أى القاضى) منحصرة في الزواج والطلاق والنفقة وما إلى ذلك من الأحوال الشخصية ؛ بل كانت تشمل مختلف الشؤون كالوقف والتجارة والرهن ودعاوى الزرع وسرقة المواشى وقضايا الخيل . وكان في الوقت نفسه مسؤولاً عن إدارة المساجد والتكايا والمقابر والزوايا . وعن دعاوى القسمة والإفراز ، وتسجيل الوكالات والكفالات والشركات . ووضع اليد ونزعها . ومسائل القروض والديون والأمانات . ومراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس . وهو الذى كان يعين المحال التى يجوز فيها البيع والشراء ، ويحدد الأسعار . وينظر في قضايا العرض والرق . ويراقب تجارة المشروبات الكحولية . ويأذن بالبناء . وينظر في الدعاوى الحقوقية - هما تبليغ قيمتها ، والدعاوى الجزائية على اختلاف أنواعها من الضرب البسيط إلى السب والشتم . إلى السرقات . . إلى القتل . . ويحكم بالمعوبات من أدناها إلى أقصاها . . حتى وبالإعدام . وهو الذى يقبل رؤساء الطوائف المختلفة من مناصبهم . . ويعينهم . . ويستبدل بهم غيرهم .

ليس هذا فحسب . فإن قاضى المسلمين في القدس كان يستقبل قناصل الدول الأجنبية في ديوانه . فيقرأ أوراق اعتمادهم . . ويعترف بتمثيلهم . . ويمنحهم الإذن بمباشرة عملهم . . ويحميهم . . .

المدينة وممثلي الطوائف المختلفة ، كما كان فيها مجلس عمومي (١٩١١ م) مؤلف من عدد معين من ممثلي الأقسية (القدس ويافا والحليل وغزة وبئر السبع) وكان لواء القدس يمثل في البرلمان العثماني (١٩٠٨ م) بنسبة ثلاثة نواب ، اثنان من القدس والثالث من يافا . والبرلمان مؤلف من مجلسين « مجلس للمبعوثين » ينتخبه الشعب وآخر « للأعيان » يعينهم السلطان .

وكانت للقدس (بلدية) وكانت هذه عند تكوينها (١٨٦٣ م) محدودة الموارد ذات ميزانية لا تتعدى الخمسمئة ليرة عثمانية ، ثم انتظمت إيراداتها (١٩٠٨ م) ، وارتفعت إلى عشرة آلاف ليرة عثمانية . وكانت عند الاحتلال البريطاني (١٩١٧ م) خمسة عشر ألف ليرة . ولقد كان في مدينة القدس (١٨٧٦ م) اثنان وعشرون شرطياً كلهم مسلمون . وكان اقتناء السلاح مباحاً لجميع السكان .

وكثيراً ما كان الأمن يفقد في المدينة ، إلا أنه كان في داخلها ، وفي أغلب الأحيان مستتباً للغاية . وكان الناس في راحة وهناء بال أكثر من أي زمان مضى ، فالمساكن متوفرة ، رخيصة الأجور . وكذلك قل عن أسعار الحاجات ؛ فقد كانت هذه رخيصة ومتوفرة للجميع . وكان قاضي المسلمين بالقدس هو الذي يحدد الأسعار . ولقد رأيناها يحدد (سنة ١٨٦٢ م) ٤٨ بارة للرتل الواحد من الزيت الممتاز ، و ٦٥ للسمن العناني و ٨ بارات للحم البقر و ٤ بارات للكثافة المخروطة و ٤ بارات للقطايف و ٦ بارات للدقيق . وبيع الرأس الواحد للغنم بقرش ونصف القرش . وبيعت دار في حارة الواد بعشرين قرشاً . كما بيعت دار مثلها في حارة النصرى بمثل هذا الثمن وهذه تشتمل على أربع غرف وساحة وصهريج . وبيعت دار مؤلفة من طايقين بباب العمود بثلاثين قرشاً ، وفي باب حطة بخمسة وسبعين قرشاً (١٦١٨ م) .

وكان مهر المرأة يراوح بين ثلاثة قروش وخمسة وستين قرشاً (١٦١٨ م) :

ثلاثه معجل والثالث مؤجل إلى أقرب الأجلين (الموت أو الطلاق) . وإن هذه المهور وأسعار الحاجات وإن كانت قد ارتفعت قليلا مع الزمن إلا أنها لم تصل في زمن ما إلى درجة يعجز عنها الجمهور . ومع هذا ورغم انخفاض أسعار المعيشة فقد كانت هناك طبقة من الفقراء . وكانت هذه الطبقة تعيش على الصدقات ، ولهذا كثيراً ما سمعناهم يتحدثون عن (الصرة) التي كانت ترسل من دار الخلافة والسلطنة في القسطنطينية ؛ وهي عبارة عن مبلغ من المال يوزع لا على الفقراء فحسب ، بل على خدام الحرم وعلى المشايخ والعلماء . وكان المسيحيون الأرثوذكس يتلقون مثل هذا العون من روسيا والدول النصرانية في أوروبا الشرقية ، واللاتين من قداسة البابا ومن الأمم الكاثوليكية .

ولقد كان في القدس وفيما حولها من الأراضي في العهد التركي مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وكان الزيت فيها كثيراً . حتى إن سكان المدينة اضطروا في سنة من السنين أن يكبوا الزيت القديم ، ليتمكنوا من إيجاد أوعية كافية للزيت الحديد . وصناعة الصابون فيها كانت رائجة . وكان هناك عدد كبير من المصابين ، يعيش من ورائها عدد كبير من العمال والصناع . وكان الصابون المقدسي يصدر إلى مصر . غير أن هذه الصناعة أخذت تتضاءل بعد سنة ١٨٧٦ م ؛ يوم اكتسحت البلاد أسراب كثيرة من الجراد ، وأنت على قسم كبير من أشجار الزيتون : والبقية الباقية من هذه الأشجار قضى عليها الأتراك عند ما انخرطوا في الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧ م) . واحتاجوا إلى وقود يسرون به قطاراتهم .

واشتهرت القدس في العهد التركي ، بصناعة العلب والأدوات المدرسية والبضائع الدينية من خشب الزيتون ؛ أو من الصدف ، والشموع المختلفة . وكانت هذه تباع إلى الحجاج الذين يفدون من كل حدب وصوب بقصد زيارة الأماكن المقدسة .

وكانت القدس مركزاً تجارياً هاماً ، يصدر القمح منها إلى إنجلترا وبعض البلاد الأوربية . وكذلك قل عن السمسم والصابون وزيت الزيتون . وأما البضائع التي هي في حاجة إليها فقد كانت تستوردها من أوروبا عن طريق مرسيلا وتريستا . كالبضائع الصوفية والحريرية ، والحمور ، والزجاج ، والخشب ، وما إلى ذلك من الأثاث المنزلي . وكانت المعاملات التجارية كلها تجرى عن طريق الأمانة والشرف والاتفاق الشفوي . فلا عقود ، ولا صكوك ، ولا سمسة ولا تسجيل . وكان في القدس (١٨٧٦ م) ألف وثلاثمئة وعشرون دكاناً . يشتغل فيها ١٩٢٠ رجلاً يعتبرون من أرباب الحرف والصنائع والمهن : - ٨٠٧ منهم مسلمون و ٥٠١ يهود و ٣٥٧ روم أرثوذكس و ١٤٦ لاتين و ٦٩ أرمن و ٤٠ بروتستانت .

والضرائب التي يدفعها السكان ستة أنواع . هي :

(الويركو والمسقفات) تجبي من أصحاب الأملاك (١٨٨٦ م) بنسبة أربعة في الألف عن الأراضي وخمسة في الألف عن الدور المعدة للسكن إذا كانت قيمتها دون العشرين ألفاً ، وثمانية في الألف إذا كانت فوق العشرين ألفاً ، وعشرة في الألف عن الدكاكين والدور المعدة للإيجار . ثم أضيف إلى ذلك ستة في المئة باسم التجهيزات العسكرية (١٩٠٨ م) . وبعد حرب البلقان (١٩١٢ م) أضيف خمسة في المئة على ضريبة الأراضي لتغطية العجز الذي طرأ على موازنة الدولة . ثم أضيف إليه ٢٥٪ باسم الأسطول .

و (العشر) يجبي من أصحاب الأراضي والمزارعين بنسبة عشرة في المئة من حاصلاتهم الزراعية . ثم زيدت هذه النسبة فجعلت $١٢\frac{١}{٤}$ في المئة . وكانت الحكومة التركية تجبي العشر بوساطة الملتزمين ، وجلهم - إن لم نقل كلهم - من أرباب الإقطاع . وكثيراً ما كانوا يظلمون .

و (ضريبة الأغنام) ضريبة قديمة العهد . تجبي عن الأغنام والجمال المعدة

للنقل بنسبة قرش ونصف عن كل رأس من الغنم . ثم زيدت هذه النسبة إلى قرشين ونصف القرش ، فأبلى ثلاثة قروش ؛ ثم إلى أربعة ، فخمسة . وأما عن الحمل فكانت الحكومة تحصل في بادئ الأمر عشرة قروش تركية . ثم زيد هذا المبلغ فأصبح ثلاثة عشر قرشاً و ٢٠ بارة . ويحصل مثل هذا الرسم عن الخنازير . وأما الخيل والحمير والثيران والجمال المعدة للحرث ، والأغنام المولودة في بحر السنة فقد كانت معفاة من الضرائب .

و (ضريبة التصنع) كانت تجبي من التجار وأرباب الصناعات وأصحاب المهن بنسبة أرباح كل واحد منهم . إلا أنها كانت ضئيلة للغاية . وكانت بمعدل يتراوح بين اثنين وعشرة في المئة من الدخل السنوي .

و (ضريبة العملة المكلفين) كانت تفرض على كل شخص يتراوح بين العشرين والستين من العمر . وكان على المكلف أن يدفع ستة عشر قرشاً تركياً في السنة ، أو يشتغل في تعبيد الطريق ثلاثة أيام .

و (ضريبة المعارف) تجبي بنسبة خمسة في المئة من قيم المسقفات . وكانت هذه تجبي مع الويركو في وقت واحد .

و (العسكرية) ضريبة كان الأتراك يحصلونها من الذميين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ويكونون في سن الجندية ، لقاء إعفائهم من الخدمة في الجيش . وكانت هذه تحصل بنسبة ٢٨ قرشاً عن كل شخص في السنة .

وهناك (الجزية) كانت في أوائل العهد التركي تحصل من أهل الذمة . وكانت هذه تفرض على الأغنياء والمتوسطين والفقراء بدرجات مختلفة . فالغني يدفع في السنة أحد عشر قرشاً ، والمتوسط خمسة قروش ونصف القرش ، والفقير قرشين ونصف القرش .

و (ضريبة الغفر) يدفعها الحجاج الذين يفتدون إلى البلاد بقصد زيارة الأماكن المقدسة من يهود ونصارى ، يدفعونها عند وصولهم إلى ثغر يافا . وكانت

هذه عبارة عن سبعة قروش أسدية ونصف القرش عن كل شخص . نصفها للدولة والنصف الآخر للأشخاص الذين يراقبون الحجاج في طريقهم بين يافا والقدس .

ويظهر أن السلطة المركزية في القسطنطينية كانت تفرض على الزعماء وأرباب البيارات في القدس ، فضلا عن الضرائب المتقدم ذكرها ، مبالغ يؤدونها إلى الجليش ، وقد بلغت هذه ، سنة ١٨١٣ للميلاد ، ثلاثة عشر ألفاً ومئتي قرش تركي أرسلت كلها للآستانة .

وبلغت واردات سنجق القدس من الضرائب المتقدم ذكرها سنة ١٩١٠ للميلاد ثلاثين ألف ليرة تركية . نُصرفت كلها على القدس وقراها : رواتب للموظفين ، ونفقات للطرق والتعليم ، والصحة ، والمستشفى ، ودار الأيتام ، والزراعة ، والشؤون الأخرى . وكانت مالية سنجق القدس المستقل .

وما كان في القدس ، أثناء الحكم التركي ، أندية ولا جمعيات . ولا كان فيها من يفكر بالسياسة . لا ، بل ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب ما كانت عليه القدس في عهد إبراهيم باشا ، ومقاومة المقدسيين له ، رغم ما قيل عنه بأنه كان يرمى إلى تكوين وحدة بين الأقطار العربية .

وبقى العرب على ما هم عليه من حب للأتراك وتمسك بالفكرة الإسلامية حتى الانقلاب العثماني (١٩٠٨ م) الذي أقيم على أسس من الحرية والإخاء والمساواة بين جميع عناصر المملكة من ترك وعرب وأرمن ويونان وأكراد وألبان . ولكن سرعان ما انقلبت الآية ، فشعر العرب أن رجال (تركيا الفتاة) لا يريدون بهم خيراً ، لا بل راح هؤلاء يبذلون قصارى جهدهم في تقدم العنصر التركي عملاً بوحى الفكرة القومية الطورانية .

عندئذ بدرت بوادر الخلاف العنصرى بين العرب والترك ، ونما حب الاستقلال :

في أفئدة العرب . فتألفت في أواخر العهد العثماني جمعيات عربية عديدة .

الآستانة وباريز والقاهرة وفي بيروت والبصرة وبغداد والشام . بعضها كان يعمل بالجهر والبعض الآخر بالخفاء . وكان لبعض هذه الجمعيات فروع في القدس ، وانضم إليها سواء في المراكز أو في الفروع عدد من أبناء بيت المقدس .

وكانت هذه الجمعيات تكتفي في بادئ الأمر بطلب الإصلاح الإداري ، على أن يمنح العرب بعض الامتيازات في الإدارة واللغة وفي الخدمة العسكرية . ولما رأى الزعماء العرب أن الأتراك المهيمنين على الإدارة يخاتلون ، راحوا ينادون بصراحة أنهم يبيغون الاستقلال ، ولا يرضون عنه بديلاً .

فاعتزم الأتراك البطش بهم ، وعهدوا بهذه المهمة إلى أحد قادتهم جمال باشا ، وكانوا قد انتدبوه لقيادة الجيش الرابع في سوريا (١٩١٤ م) ؛ فألف في «عالية» من أعمال جبل لبنان ديواناً عسكرياً عرف فيما بعد بديوان عالية . وساق إلى هذا الديوان معظم رجال الحركة العربية .

فحوكم هؤلاء ، وحكم على بعضهم بالسجن أو النفي ، وعلى البعض الآخر بالإعدام شنقاً . ولقد نفذ حكم الإعدام بفريق من رجالات العرب في بيروت ، وفريق آخر في الشام وفي القدس .

وكان بين الذين أعدموا أربعة من الفلسطينيين هم : على النشاشيبي (من القدس) وأحمد عارف الحسيني وولده مصطفى (من غزة) وسليم عبد الهادي (من نابلس) .

ولم يكتف جمال باشا بعدد الذين شنقهم أو سجنهم ونفاهم من أحرار سوريا وفلسطين ، فقد فرض الحصار على البلاد من الناحية الاقتصادية ، فانقطع القمح عنها ، كما انقطع معظم المواد الغذائية التي كانت ترد إليها من الخارج ، وألم بالبلاد كلها ولا سيما بلبنان ، كرب شديد من جراء هذا الحصار ، فمات على إثره خلق كثير .

ولما كان الظلم مصرعه وخيم . وكان الضغط يولد الانفجار ، فإن ما فعله

الأتراك بالعرب أدى إلى قيام الثورة ، وقد أوقد نارها الشريف حسين بن علي (١٩١٥ م) . وما كاد هذا يطلق الرصاصة الأولى حتى لبي نداءه العرب في مختلف أقطارهم ، وكان بينهم عدد كبير من الفلسطينيين فروا من مدنها ومن الجيش التركي الذي كانوا قد انتسبوا إليه بعد الحرب . فريق منهم التحق بجيش الشريف رأساً ؛ وفريق التحق بالجيش الإنجليزي المخالف له . وكانت المحادثات قد انتهت بين الشريف حسين وبين مكماهون ، وحصل الشريف بموجبها على عهود رسمية من الإنجليز باستقلال بلاد العرب إذا انتهت الحرب بنصرهم . وكانت النتيجة أن خسر الأتراك الحرب وانتقلت القدس من أيديهم إلى أيدي الإنجليز . وكان ذلك في اليوم التاسع من شهر كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩١٧ م ، كما ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب .